الاستشراق والمستشرقون
الصلة بين الشرق والغرب
١٤٣١/٩/٢٧هـ - ٢٠١٠/٩/٦م

لم تنقطع الصلة بين الشرق والغرب منذ فجر التاريخ، ولم تنقطع بينهما منذ فجر الإسلام، وكلنا يعرف أن الصلة بين الأمم والشعوب لها وسائل في الالتقاء الافتراق، ولو نظرنا إلى صلة الإسلام بالعالم الأوربي وجدنا أنها صلة سبقت ما نسميه الاستشراق بمئات السنين، وأهم ذلك اتصال الحضارة الأوربية والحضارة العربية في الأندلس منذ أوائل القرن الثامن الميلادي، وقد قامت صلات ثقافية واقتصادية وعسكرية بين الحضارتين والثقافتين ثم أعقب ذلك اتصال آخر مثلته الحروب الصليبية والحملات المتتابعة من كل أوربا، منذ دخول العربِ المسلمين الأندلس حتى خروجهم منها.

هذه الصلات بين الغرب والشرق طبعت الحياة بكل أبعادها في الماضي لكن الحديث هنا ليس عن كل اتصال تقوم به الأمم سواء كان هذا الاتصال إيجاباً أو سلباً، وإنما حديثنا هذا المساء سيكون عن اتصال من نوع خاص، لم يسبق مثله ل في أغراضه ولا صلته وطريقته، ولا في نتائجه ذاك هو ما اصطلح على تسميته بالاستشراق، وهو مصطلح جديد نسبيا في اللغة العربية والتاريخ في حدوده ومعانيه ودلالته؟

www.mtenback.com

ماذا نعني بالاستشراق ؟

لم ترد كلمة استشراق بالمعنى الذي نتحدث عنه اليوم في معاجم العربية القديمة وإنما جاءت بمعنى الجهة (شرق٩. وأول المعاجم العربية التي ذكرت الاستشراق في العصر الحديث، هو معجم متن اللغة للشيخ أحمد رضا، إذ أورد الكلمة بمعناها الحضر. ويعني بها طائفة من الغربيين الذين كان لهم اهتمام في شؤون العالم القديم أي الحضارة الهندية والفارسية والعربية الإسلامية وامتدادها التاريخي والجغرافي، وقد اتجه الاستشراق إلى الاهتمام في تاريخ هذه المنطقة وهذه الحضارات في كل أبعاده السياسية والجغرافية والتاريخية واللغوية والدينية .

وكان المستشرقون في مجملهم من أهل الاختصاص في العلوم الإنسانية في غالبيتهم، وإذا عدنا إلى كلمة استشراق في أصلها الغربي فهي تعني (Orientalism) صفة و (Orientalist) اسما، ويقول المؤرخون للآستشراق: إن الكلمة استعملت أول مرة في اللغات الأوربية في عام ١٦٣٠م، ولم يتداول اسم مستشرق إلا في حدود عام ١٧٧٩م في اللغة الإنجليزيةِ، ولم تدخل في معجم الأكاديمية الفرنسية إلا في عام ١٨٣٨م. من هذا ندرك حداثة الاستشراق وقرب عهده.

www.mtenback.com

مهمات المستشرقين واختصاصهم:

بدأ اهتمام المستشرقين في علوم الشرق كما يسمونه مع أوائل النهضة العلمية الأوربية خاصة، وبدء توجه الأوربيين إلى العالم القديم أو الشرق كما يسمونه في دراسة حضارة البلاد القديمة، وإلى القيام برحلات استكشافية لتطبيق المعلومات النظرية التي قرؤها عن العالم القديم، ومجالة التعرف على طبيعة البلاد وسكانها ، ومن أوائل الرحلات رحلة المستشرق (كرستين هافن ١٧٦٠م) من الدانمرك وهي أبعد البلاد الِأوربية عن العالم القديم المسمي « شرقيًا» وذلك عام ١٧٦٠م وتعرف هذه البعثة ببعثة نيبور لأن أفرادها هلكوا جميعا ولم يعد منهم غير نيبور، ولهذا سميت هذه الرحلة الاستكشافية الأولى باسمه. وبعد هذه الرحلة توالت رحلات المستشرقين، إما رحلة جسدية أو رحلة معرفية، أي دراسة معارف العالم القديم وعلومه والتخصص بهذه المعارف والعلوم ونقلها إلى اللغات الأوربية وتعريف الأوربيين بالحضارة القديمة التي أصبحت في نظرهم تاريخا لأمم مضت قوتها وسيطرتها وبقيت معارفها وعلومها، وسكان اصبحوا في نظرة الغربيين جزءا من التاريخ إذ لم يكن لهم قوة الأوربيين ولا قدرتهم العسكرية والعلمية، وكان السباق إلى العالم القديم على أشده بين الدول الأوربية القوية الناهضة ابتداء بسياحة البرتغال أول

www.mtenback.com

الدول الأوربية وصولا إلى العالم القديم، ثم تتابعت الدول كلها في الاتجاه إلى الشرق بعد أن عرفت العالم القديم وحضارته ولاسيما بالحضارة الإسلامية التي التقت بها مع بزوغ فجر الإسلام وأيامه الأولى.

الدور الثقافي :

ظهر نشاط المستشرقين مؤسسا ثقافيا يعتمد على ثلاث أسس هي : دراسة الجغرافية اسكانية والمكانية ودراسة اللغات بكل مستوياتها وثقافاتها وآدابها.

دراسة التاريخ القديم للمنطقة وتكويناتها السياسية وعاداتها وتقاليدها الاجتماعية.

ولأن ما نتحدث عنه في هذا المساء وما يهمنا هو الجانب الأدبي والاهتمام الثقافي الذي قام به المستشرقون ولاسيما ما يحص العربية بكل معانيها الدينية والأدبية والتاريخية والثقافية.

فلابد في ذه الكلمة من تتبع الخطوات الأولى لاهتمام الأوربيين المبكر بالثقافة العربية حيث بدأت ترجمة القرآن إلى اللاتينية عام ١١٤٣ على يد فريق كان من أعضائه القس الانجليزي ROBERT OF KETTON كما ترجم « مايكل سكوت» من اسبانيا القرآن الكريم إلى اللاتينية ايضاً بطلب بطرس المبجل عام ١١٤٣ ضمن مجموعة من الكتب العربية والإسلامية.

www.mtenback.com

وفي هذا التاريخ القديم بدأت العملية العلمية بين الشرق والغرب تأخذ البعد المعرفي الاستفادة من جهود العرب العلمية لذا بدأت بترجمة كتاب الشفاء لابن سيناء في القرن الثاني عشر وكتاب الجبر للخوارزمي في عام ١١٤٥م ومن ثم استمرت مرحلة الاستفادة من ثقافة الشرق علميا ومعرفيا ولم يكن ثمة اتصال مباشر في تلك الفترة المبكرة.

متى بدأ الاستشراق ؟

لكن في أول القرن السادس عشر تحول النظر في أوربا إلى زاوية أوسع واتصال مباشر في ثقافة الشرق وبدأت أول الدراسات المتخصصة في اللغة العربية وتراثا ، حيث أنشئت أول مطبعة عربية في روما عام ١٥٨٦م. وبدأ الاهتمام العام والخاص في الثقافة العربية والإسلامية يتسع ويميل إلى منهجية معرفية صارمة، وتأسس كرسي اللغة العربية في « الكولج دي فرانس.. » وتولاة « غيوم بوستل» عام ١٥٨١م وخلفه عام ١٦٠٩م تلميذه جوزيف سكاليجية. وانتقلت العدوى سريعاً إلى الجامعات الأوربية الأخر، فأنشىء كرسي الدراسات العربية في كمبرج عام ١٦٣٢م ومثله في اكسفورد عام ١٦٣٤م.

وخلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر لم يعد الاستشراق اهتماما شخصيا أو كرسيا في جامعة أو جهود فردية وإنما أصبحت أوروبا كلها

www.mtenback.com

معنية بهذا الأستشراق فقامت مئات المؤسسات، ومئات الجمعيات ،، عشرات المجلات، والروابط العلمية، والتجمعات المهنية ، وتأسست في كل دولة أوربية مدرسة للغة العربية، أو أكثر من مدرسة ومن أهمها مدرسة اللغات الشرقية الحية في فرنسا. وجمعية البنغال الاسيوية الملكية، والجمعية الملكية الأسيوية لبريطانيا العظمي وإيرلندا، كل تلك الجمعيات والدوريات والنشرات كانت تهتم باللغة العربية وتدرس ما صدر فيها من تراث وتجمعت وتحقيق وتنشر أمهات الكتب في التراث العربي ومئات الدواوين وعشرات الموسوعات التاريخية عن الإسلام والعربية وتراثها. وتحقيق المخطوطات العربية في كل الفنون وقد برز أعلام من المتخصصين في التراث العربي والإسلامي.

منهم :

آرثر آربري حقق القصائد السبع

كارل بروكلمان تاريخ الأدب العربي

رينهارت دوزي

وليم لين

بول كراوس

ولوي مسنيون

www.mtenback.com

كارلو نالينو علم الفلك وتاريخ الأدب العربي وتاريخ اليمن

كرستن هافن

فشر دراسة إمرىء القيس.

أوجست مولر

بلاشير تاريخ الأدب العربي

دي سلان

ارنست فرانكل

ومئات غير هؤلاء لا يمكن حصرهم في هذه الكلمة.

مآخذ على بعض المستشرقين:

نظر المستشرقون إلى التراث العربي والإسلامي بعين الآخر الأجنبي عن التراث بكل مكوناته وقيمه المعرفية ، وأخضعوه لمقاييسهم الغربية ومناهجهم الأكاديمية ورؤيتهم الناقدة المتجاوزة في نقدها والمتحررة من ثوابت التراث الإسلامي. وحكموا فيه، هذه المقاييس والمناهج وهو ما يخالف القيم والمناهج والمبادىء والنظريات الإسلامية والعربية التي تعتمد يعلى ثوابت مستمدة من الثقافة الشرقية بشكل عام كما أن منهجهم يعارض أسس البناء المعرفي العربي والإسلامي أيضـًا، ولاسيما ما يتعلق بالتقاليد والقيم الدينية والعادات والأعراف الاجتماعية، الأمر الذي اثار

www.mtenback.com

أهل الثقافة وحفزهم على الرد والنقد لبعض آراء المستشرقين مشيرين إلى خطأ عرض الثقافة الشرقية على مناهج الثقافة الغربية ومحاكمتها غير الموضوعية في رأيهم على تلك المناهج .

وتمثل ذلك في النقاط التالية :

١- يعتمد تقويمهم للتراث على معلومات سطحية، ولم يتعمق أكثرهم في معرفة مصادر التراث.

٢- تعددت اهتمامات بعضهم واعتمدوا على المشافهة الناقصة والقراءات المتعجلة في بعض ما ينسبونه للشرق.

٣- اتخذوا اللغة أداة لتفسير معتقداتهم وآرائهم في الثقافة الشرقية بكل أصنافها ومعارفها التي لا يكاد يلم به مجتمعة أهلها وأبناء بجدتها فضلاً عن الغرباء عنها.

٤- انطلقت أحكام بعضهم من خلفية وموقف مسبق أو استنتاج متعجل أو من انطباع شخصي، ومسلمات عندهم تجعل التدقيق في التراث قليلاً في بعض ما يفسرون به الظواهر الاجتماعية والدينية.

٥- لم يكن بعضهم مخلصا للمنهج العلمي الصارم في تعامله مع التراث الشرقي، وإنما لعبت في بعضهم الأهواء السياسية والدينية.

www.mtenback.com

٦- دقائق اللغة :

كانت اللغة عائقا كبيرا أمام بعضهم، وإن كانت قلة قد أتقنوها كل الإتقان، فمن تعمق في اللغة كان أقرب إلى الصواب، ومن ضعفت لغته أساء الفهم ووقع في مزالق حسبت عليه .

فضل المستشرقين على التراث والثقافة :

لا يختلف اثنان منصفان على أن للمستشرقين فضلا كبيراً على التراث، وعلى اللغة العربية وآدابها ومعارفها التي لا يمكن التقليل منه أو تجاهله ، وأن لهم جهودا لا تنسى في هذا المجال ومنها :

١- اهتم المستشرقون بتراث العربية، وبدئوا خطواتهم الأولى بجمعه والمحافظة عليه من الإهمال والضياع الذي ساد العصور الوسطى العربية والإسلامية ولولا جهودهم لضاع الكثير الذي حفظوه واعتنوا به.

٢- اهتموا بدراسة التراث من كل الفنون وتحقيقه ونشر أمهات الكتب والدواوين الشعرية وأخرجوها من ظلمات الترك والنسيان والإهمال الذي أصابها.

www.mtenback.com

٣- اهتموا بدراسة اللغة العربية خاصة وأنشئوا المراكز العلمية المتخصصة لدراستها في الجامعات ونشرواها واعتنوا بها أيما عناية، في جانبيها الفصيح والعامي .

٤- اهتموا بدراسة القرآن الكريم وعلومه وتفسير القرآن وكتبه والحديث ومصنفاته وفهرسوها وقربوها إلى الناس الأمر الذي لم تعهده المناهج العربية القديمة.

٥- بذلوا جهودا كبيرة للحفاظ على أمهات الكتب التي تعنى بهذين العلمين خاصة وعلوم العربية كافة.

٦- ترجموا القرآن منذ ثمانمائة عام أو تزيد.

٧- حققوا دواوين الشعر العربي وأحسنوا كل الإحسان في هذا الجانب الذي خلا من الأغراض الاخرى مثل الأغراض السياسة التي جنحت ببعضهم إلى عدم الموضوعية فيها.

www.mtenback.com

المستشرق الدانمركي كريستسن هافن على ملك الدانمرك إفاد بعثه إلى جزيرة العرب وفصدر أمر الملك فريدرك الخامس عام ١٧٦٠ ليشكيل لبعثة برئاسة المستشرق هافن (بعثة نيبور).

٢- المستشرق فشر الألماني دراسة لمرؤالقيس.

٢) أو حسبت مولر ألماني.

٣) بلاشير تاريخ الأدب العربي

٤) بروكلمان تاريخ الأدب العربي

٥) المستشرق الفرنسي دي سلان نشر قصائد لمرؤ القيس عام ١٨٣٦هـ.

٦) المستشرق اهلووارد (العقد الثمين في الشعراء لسنة الجاهلين).

٧) نشر المستشرق أرنست فرالانكل معلقة إمرىء اقيس عام ١٨٧٦م.

طبعا قصائد ومنها معلقة إمرؤ القيس في برلين ٨٧٦م شك في التاريخ .

٨) المستشرق أربري أول من ترجم المعلقات عام ١٨٧٠م.

Th golen Poeml "The Seueu odes"

Classical Arabic Poetry

Clahes Tuetey 1985

من إمرىء القيس إلى المعري المؤلف.

٩) شارلز تيوني.

١٠) المستشروجب.

www.mtenback.com